رأي وحوار

إسلامية الجامعة وتفعيل التعليم العالي بين النظرية والتطبيق:

الجامعة الإسلامية العالمية نموذجاً

د. عبد الحميد أحمد أبوسليمان*

القضية

كثيراً ما يخطئ العلاج أو يقصِّر لخطأ في التشخيص أو لقصور في التحليل. وهذا لا يصدق على شيء كصدقه على حال قصور تشخيص تخلف الأمة الإسلامية الذي سرى في أوصالها لقرون عديدة، والذي بدا وكأنه قد استعصى على العلاج منذ أن أطلق أبو حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م) صرخته في "تهافت الفلاسفة" ونداءه في "إحياء علوم الدين". وكان من أهم أسباب فشل التشخيص وفشل العلاج أنه انصرف إلى الأعراض وهدف إلى الظواهر، فضلاً عما أصاب رؤيته الحضارية من تشوه إذ قصَّر به منهجه الجزئي عن الغوص إلى جواهر الأسباب.

كانت شكوى الأمة وما تزال من التخلف ومن التمزق ومن الطغيان والتسلط، وهي أيضاً شكوى من الظلم والفقر والجهل والمرض، وكانت الأمة وماتزال تتطلع إلى القوة والوحدة والعدل. وكانت هذه الآمال وماتزال وهماً وسراباً، ولم يتحقق أي شيء من آمال التنمية السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية، وظل أمر اللحاق بالركب وتوفير المستويات الإنسانية اللائقة في المعاش والتعليم والصحة مطلباً لشعوب الأمة لا يتحقق.

وإذا كنا نتفق مع كل المصلحين في أن كل وجوه هذا الإصلاح مطلوبة، وأنه لا يمكن تحقيق نهضة الأمة وحمل رسالتها دون تحقيق هذه الإصلاحات، ولاسيما مطلب إصلاح التعليم، إلا أننا نرى أن كل هذه الإصلاحات إنما هي أعراض لأسباب أكثر عمقاً وأبعد غوراً فإن لم نتحلى بالنظرة الناقدة الشجاعة، ونزوّد أنفسنا بالوسائل المعرفية

* رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ورئيس مؤسسة تنمية الطفل بالولايات المتحدة الأمريكية، ومدير الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سابقًا، والأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي سابقًا.

الصحيحة اللازمة لمعرفة هذه الأسباب، فإننا سوف نستمر في عجزنا عن معرفتها والتزود بالقدرة الحقيقية على مواجهتها والتغلب عليها وتحقيق الأهداف والمطالب والإصلاحات الحياتية الحضارية المشروعة لأمتنا.

إن وجوه التخلف كافة في تاريخ الأمة إنما هي في الحقيقة تعبير عن داء خطير هو داء قصور الأداء الذي يعود إلى ضعف الحافز النفسي والذي يعود بدوره إلى داء تشوه الرؤية وقصور المنهج؛ أي إن الأمر في أساسه يعود قبل كل شيء إلى تشوهات في تكوين الأمة المعرفي والنفسي التي لا يمكن معالجتها دون أن نتعرف على حقيقتها وأن نجعلها في بؤرة وعينا بجهود الإصلاح حتى يمكن للأمة أن تتخلص من داء غبش الرؤية وضعف الحافز و قصور الأداء الذي يقف خلف مظاهر القصور والتخلف بوجوهه كافة في حياتنا في السياسية والاقتصاد والعلوم والتقنيات.

والسؤال المهم هنا هو: كيف تردّت الأمة الإسلامية –وهي تمثل أكثر من خمس البشرية (أكثر من بليون نسمة) وتمتد من المحيط الأطلسي حتى المحيط الهادي– إلى هذه الحال حتى بلغ قيمة إنتاج أقطارها قاطبة حوالي ألف ومئة بليون دولار أمريكي، أي أقل من قيمة إنتاج فرنسا وحدها، ويساوي حوالي نصف قيمة إنتاج ألمانيا، وأقل من ربع قيمة إنتاج اليابان؛ ذلك الشعب الذي يقطن عدداً صغيراً من الجزر الفقيرة في مواردها الطبيعية، وتغطي الجبال أكثر من ثلاثة أرباع أرضه، وتعصف الزلازل والبراكين بأرضه وبشعبه، ولايتجاوز عدد سكانه مئة وعشرين مليوناً من البشر.

إنه لا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا بأنها ترجع إلى داء قصور الأداء إذ لا تتطلع شعوب الأمة إلا إلى مجرد البقاء والحفاظ على الحياة وبأقل الجهد، ولا مستقبل ولا طموح لدى الأمة؛ بل هي تكتفي بإنتاج المواد الأولية، وبأساليب بدائية أو بوساطة خبرة أجنبية وصناعات تركيبية استهلاكية، وهذه الأطنان من المعادن والأوليات التي تصدرها بحفنة من الدولارات تعود إليها على شكل صناعات إلكترونية وتقنية تبلغ قيمتها ملايين الدولارات، والفرق بينهما هو الإنسان، وأداء الإنسان، وقدرة الإنسان، وفكر الإنسان.

دون الرجوع إلى أعماق أنفسنا، وأعماق تاريخنا، وما لحق بناء عقولنا وأنفسنا من تشوه معرفي ونفسي؛ فإنه لايمكننا –ونحن ورثة عهد الرسالة وحضارة الإسلام ولا تنقصنا الموارد الطبيعية؛ فالأرض واسعة غنية، ولا تنقصنا المبادئ والقيم والأهداف السامية؛ فالإسلام له فيها القدح المعلى– أن نفهم ما أصابنا من تخلف وضعف، إلا أن يكون سبب التخلف كامناً في أنفسنا، وفي عقولنا، وفي منهج فكرنا، أي إن الإشكال والداء في نهاية المطاف كامن

في أساس البناء الفكري وله آثاره النفسية التي انتهت بنا إلى أدوى الأدواء وهو قصور الأداء وهو داء يلازم من يبتلي به في كل وجهة يتوجهها، فهو يواجه الأمة في النظام العام وفي الإنتاج وفي التعليم وفي التقنيات وفي حماية الحقوق وفي الدفاع عن الأوطان، ولا خلاص منه إلا بتغيير الذات وإصلاح العقول والنفوس؛ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (الرعد: 11).

التربية والتعليم:

لقد صح توجه المصلحين حين تنادوا إلى إصلاح التعليم على أنه واحد من أهم أركان الإصلاح التي يقوم عليها بناء الأمة، ولكن المؤسف أنهم توجهوا بشأنه –كما هو الحال في توجهاتهم كافة– إلى الجانب الكمي، وإلى الإصلاح السطحي، الذي يتوجه إلى المظاهر ويبنى على التقليد ومحاكاة القادرين على اختلاف أنواعهم؛ فتسير الأمة تَبَعاً على غير رؤية أو بصيرة، في عماوة عمياء، تتعثر خطواتها، وتتشعب بها الطرق وتستبد بها الحيرة.

لا شك في أن التربية والتعليم الصحيحين هما أساس البناء، وهما دعامتا الطاقة الإنسانية المحكة، ودونهما لامجال لتحقيق القدرة والعطاء والإنجاز، ولكن المؤسف أن جوهر الدعوات الإصلاحية في مجال التربية والتعليم هي دعوات إلى التقليد في المباني ومحاكاة الطرائق، وفي التركيز على الكم والوسائل، بل واستيراد فروع المدارس والجامعات، ولذلك فإننا إذا نظرنا إلى أحوال التربية والتعليم في ربوع بلاد هذه الأمة نجدها تركز على "المدني والتقني" كما نجد فيها مبالغة كبيرة في محاكاة كل الصيحات الجديدة في البلاد المتقدمة، وهَمّ هذه الجهود ينصرف إلى استيراد الآلات والأدوات والأنظمة، وينتهي بهذه الجهود إلى "خلط وتلفيق" لاهادي فيه إلا "المحاكاة والتقليد" ولايختلف عن ذلك في جوهره "العقدي والشرعي" في إغراقه بالمحاكاة التاريخية والتقليد العقيم الذي لاهادي فيه إلا التكرار والاستظهار.

أليس عجيباً أن تأتي ثمار الإصلاحات على مرِّ القرون المتأخرة بأسرها، لاتبلغ بأمة الرسالة غاية، ولاتحقق لها هدفاً، وتظل النفوس معها حائرة لهول الفجوة بين الواقع والمثال وبين الدعاوى والنتائج.

وإذا كنا نوافق على أن جوهر الإصلاح يكمن في إصلاح التربية والتعليم؛ فإننا لانعني بذلك الوقوف عند حد الوسائل وعند مجال الكم واستيراد المخططات والآليات والوسائل والأدوات فإننا نعني الغوص إلى جوهر بناء الإنسان بصفته رؤية عقدية حضارية و منهجاً معرفياً فكرياً علمياً وبناء نفسياً فعالاً إيجابياً غوصاً يتطلب القدرة وينتهي إلى

توظيف الوسائل و إنجاز الكم الصالح وتوفير الطاقات اللازمة للأداء القادر على تحقيق الغايات، وحل الإشكالات، وتحقيق الإصلاح والتقدم في المجالات السياسية والاقتصادية والتقنية، والفوز في ميدان السبق الحضاري و تبليغ الرسالة.

من هنا نبدأ:

السؤال المهم هنا هو من أين نبدأ؟ والجواب هو: علينا أن نبدأ بإصلاح النفس؛ لأن بداية الإصلاح الإسلامي إنما تكمن في إصلاح النفس المسلمة؛ وذلك بإصلاح ماأصاب أصل رؤيتها العقدية وحوافزها الحضارية ومنهجها الفكري وثقافتها الاجتماعية وخطابها التربويمن تشوهات بسبب ماخالط مسيرة الأمة من أعاصير الأحداث ومخلفات تراث الشعوب والأمم؛ فكان كل ذلك كالحجارة التي ألقيت في تروس عجلة الدفع الحضاري الإسلامي النابع من رسالة الإسلام، ومن عهد رسالته، مما جعلها تبطِّئ مسيرتها، وتعوق طاقة دفعها، حتى أوقفت تلك التشوهات والمعوقات حركتها، ولم يجد الأمة ماحققته على مرِّ القرون من تراكمات الحِرَف والصناعات، فانتهت إلى جثة هامدة وكم مهمل في حلبة سباق الأمم وتدافع الحضارات، وسقطت فريسة لأعدائها، تجتر آلامها، وتندب حظّها.

أما كيف حدث ذلك؟ وكيف بدأ؟ فإن ذلك قد بدأ حين انطوى عهد الرسالة والخلافة الراشدة في قرن من الصراع أيام العهد الأموي؛ حيث ضعف الأداء والإعداد التربوي الإسلامي، وغلبت الأثرات والنعرات وأطلت بقايا الجاهليات في غمرة الأحداث والتحديات الهائلة المتسارعة، وانتهى الأمر بعزل العاملين العالمين حماة مثال عهد الرسالة عن ميدان حلبة ميدان الحكم والسياسة والحياة العامة، وحملوا على عزلةٍ مدرسية تمَّ توظيفها في فتوى وقضاء المعاملات الفردية والأحوال الشخصية والإمامة في المساجد وحضِّ المصلين -في الجمَع والحلقات- على مكارم الأخلاق.

إن هذا العزل، وهذه العزلة، لحملة العلم العاملين وحماة المثال الإسلامي الذي هم في نهاية المطاف مصدر طاقة حركة الأمة كان له أسوأ العواقب في تشويه الرؤية العقدية الحضارية الكلية، وفي تحطيم مؤسسات قيادة الأمة ومستقبل الثقافة والتعليم في الأمة، وفي انحطاط مناهج تربية الناشئة.

إن الرؤية العقدية الحضارية الكلية الإسلامية هي عقيدة التوحيد وعقيدة الاستخلاف وهي عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، فهي عقيدة جادة إيجابية تجعل غايتها الإحسان والإصلاح في الحياة الدنيا (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وتجعل حياة المسلم -بكل أبعادها ومجالاتها- عبادةً، أي (تعبيداً) لله الحق، ولذلك فهي ضمير الأمة الذي يحفزها إلى العمل الصالح النافع في هذه الحياة الدنيا والآخرة (إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر)، فهو يوزعها بين الذكر والجهاد؛ حيث يكون ذكر الله حافزاً إلى العمل الأخروي الصالح، أي حافزاً إلى الجهاد بكل أنواعه في العلم والعمل، أي حافز لجهاد تزكية النفس، وجهاد طلب الرزق، وجهاد طلب العلم، وجهاد السعي بالإصلاح، وجهاد السعي في حاجة المحتاجين، وجهاد الدعوة، وجهاد الدفاع عن الدين وجهاد الدفاع عن النفس والأهل والأوطان، وجهاد الدفاع عن المستضعفين، وهذا يعني أن حياة المسلم كلها هي حياة جهاد، سواء أكان ذلك في الشأن الخاص أم في الشأن العام، أو كان جهاداً في حاجة الفرد، أو جهاداً في حاجة الجماعة، ويستعين المسلم على ذلك كله بذكر الله في تسبيحه وقرآنه، وصلاته، وصيامه، وزكاته، وحج البيت، وفي تعظيم الشعائر، ومراقبة الله سبحانه في السر والعلن.

"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم" (النور:55)، "قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين" (الأنعام: 162)، "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين" (العنكبوت: 69)، "وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون" (العنكبوت: 45).

أما الرؤية الانعزالية المدرسية التي خيمت على الصفوة العلمية للأمة بحكم الواقع الذي أصبحت تعيشه والزاوية التي باتت ترى وتمارس منها؛ كان لابد من أن تنتهي بها إلى أن تصبح رؤيةً تهمّش العام في الحكم السياسي، والعدل الاقتصادي، والتضامن الاجتماعي، وأداء الوظائف العامة، وفي المؤسسات، وكان لابد لها من أن تركز على شئون الذكر والشعائر في اللغة القرآنية لتحجب سواها حتى تدعوها بالعبادات ونحن نعلم أن حياة المسلم في "اللغة القرآنية" وعمله كله "عبادة"،[1] سواءً أكان ذلك ذكراً لله أم كان سعياً وجهاداً، وكان للرؤية المدرسية الانعزالية أن تهَوِّن -في

[1] إن مفهوم العبادة والعبودية في الإسلام مشتق من التعبيد، وليس من الاستعباد، حيث إن المسلم بإرادته الحرة يتقبل ما هو حق وصواب، وذلك مثار اعتزاز ومنبع قوة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) الأنفال: 36.

سلبية- من شأن جهاد العمل والسعي في مناكب الأرض وعمرانها وإصلاحها، وأن تختزله ليصبح مجرد معاملات وأحكام عقود يقصَد منها أن تضبط تعاملات الناس في أمر مصالحها وكسب قوتها.

هذا التشوه في الرؤية الكلية الذي فرضته عزلة الصفوة -عزلة "أهل العلم"- هو المسؤول بالدرجة الأولى من الناحية النفسية عما أصاب حياة الأمة وشخصيتها وغاياتها ووظائفها الجماعية من سلبية نحو الحياة وغاياتها العمرانية والإصلاحية؛ بحيث لم تعد هي تلك الرؤية الإيجابية العمرانية التي تحض على الزرع والعمل حتى ولو لم تكن للزارع — وقد آذنت الدنيا بالزوال – فسحة من العمر يجنى فيها الثمر. هذا التشوه في الرؤية هو المسؤول أساساً عن غيبة الوعي وجدية السعي وإبداعه في حياة الأمة والمسئول أساساً عن فساد حياتها العامة وتمزقها، وعن سلبية الأمة وضعف حوافزها النفسية، وقصور أدائها الحضاري.

وقد أورث العزل والعزلة المدرسية التي حوصر بها رجال العلم والمعرفة و مثال الإسلام في عصورها المتأخرة، أحادية في المعرفة توارت معها التجربة والمعرفة الإنسانية والمتغيرات الاجتماعية بعيداً؛ لتنحصر المعرفة في الإحاطة النصية واللغوية، وتنعدم معها في النهاية كل طاقات التجديد والاجتهاد، ويسود التقليد والاستظهار، ويتدرَّع العجز الفكري بقدسية النص في قهر إرادة الأمة وإخضاعها – بغض النظر عن النوايا – لممارسات الكثير من ظلامات الجهالة وعسف الكثير من الجهال وأصحاب الأغراض ولأمراض، ولتنحط الثقافة والعلوم والمعارف الإنسانية في قرون التقليد والانحطاط، وليقتصر تعليم عامة الأمة وتعليم ناشئتها وثقافتهم على الكتاتيب وما تقدم من النزر اليسير بتعليم شيء من القرآن الكريم ومبادئ الحساب لتصريف أدنى الأساسيات من حاجات الحياة اليومية، وبأساليب تربوية وتعليمية سيئة تقوم على السلطوية والعقاب يمولها الآباء بالنزر اليسير الذي يقدرون عليه، يدفعونه للمعلم البائس الذي لم يجد وسيلة أكرم من مهمة معلم الصبيان، وهو نظام تعليمي كانت أساليبه وممارساته موضع النقد والمؤاخذة والتجريح من قِبَلِ كثير من أصحاب الفكر والنظر مقارناً بأسلوب ثقافة أبناء الخاصة التي يختلف مستواها ويتسع مجالها إلى شيء من علوم الدين والآداب، وتتوخى حسن معاملة الطالب، وحفظ كرامته، وتتضمن قواعد هذا اللون من التربية والتعليم، وصايا الخاصة والحكام، إلى مؤدبي أبنائهم في دورهم، ولا يضاف إلى هذين القطبين والنظامين التربويين الثقافيين المتنافرين إلا حفنة من المدارس التي تهدف إلى تخريج (كوادر) الأئمة والوعاظ والقضاة والمفتين.

وبتشوه الرؤية العقدية الكلية وأحادية المعرفة وعقم المنهج المعرفي وقهر الخطاب الديني واستبداد الصفوة السياسية؛ تباطأ دفع عجلة روح الإسلام الحضارية وانتهت الأمة ومؤسساتها إلى التدهور والانحطاط، وانحدرت نفسية شعوبها إلى السلبية والخنوع، واتجه أداء أبنائها إلى القصور، وخبت الطاقة، وضَعفَتْ الحوافز النفسية إلى إتقان الأداء، لأنّ المحب الراغب هو الذي يبذل نفسه ويصبر على عناء البذل، أما الخائف والكاره فهو سلبي يفعل الحد الأدنى.

إن قصور الأداء، وضعف الحافز، يبقى هو العقبة الكأداء أمام كل محاولات الإصلاح التي لابد للأمة أولاً من أن تتخلص منها ومن أسبابها حتى يمكن إنجاح مشاريع الإصلاح الإسلامي، والحصول على الثمار المرجوة، وتحقيق الشهود الحضاري في عصر العلم والتقنيات.

موضع التعليم العالي من الإصلاح الحضاري الإسلامي:

والسؤال الآن هو ما موضع التعليم العالي من مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي؟ وكيف نفعِّله ليؤدي الأدوار المنوطة به في نشر العلم والثقافة وتوليد المعارف وإعداد (الكوادر) اللازمة لحاجات الأمة ومواكبتها.

وإذا كان توليد المعارف ونشر الثقافة وإعداد (الكوادر) العاملة من أهم مهام التعليم العالي؛ فإن هذه المهام وهذه الغايات تتعدى جهود التجهيزات المادية والترتيبات الإدارية والتراكيب الأكاديمية المدرسية ومخططاتها والتي تعتمد الاستيراد والمحاكاة للمنظومات المعرفية والأنظمة التعليمية والتربوية، وذلك أن لكل شخصية حضارية منطلقاتها وغاياتها وقيمها ومفاتيح تحريك كوامن طاقاتها، وأي جهود تتجاهل هذه السمات والخصوصيات ولا تخاطب مكامن الطاقة للشخصية الحضارية للأمة فإنها لن تحرك وجدانها، ولن تدفعها باتجاه الاستجابة وإتقان الأداء. ولذلك فإنه لا يمكن للأمة أن تأخذ موضعها اللائق بها بين الأمم ما لم يتم إصلاح التعليم العالي ضمن المنظومة التربوية والتعليمية وتفعيله والتخلص من الآفات التي تمكنت منه حتى يحقق الغايات والمهام الأساسية المنوطة به.

آفات التعليم العالي في البلاد الإسلامية:

الآفة الأولى: هي آفة التقليد والمحاكاة، وذلك أن جلَّ أنظمة التعليم العالي في البلاد الإسلامية وفلسفاتها غربية أجنبية عن ضمير الأمة وغاياتها الحضارية، معتمدة على التقليد والمحاكاة، لا تأخذ في الحسبان الطبيعة والسمات

الشخصية والخاصة للحضارة الإسلامية ومنطلقاتها وقيمها، والمبنية على مبادئ التوحيد والاستخلاف، وغائية الوجود وأخلاقيته، ووحدة منطلقاته، وتكامل أبعاده المادية والروحية والأخلاقية وأبعاده الدنيوية والأبدية؛ حيث لايكون الكسب والإنجاز والإتقان والعمران غاية في حد ذاته، بل هو حاجة معاشية، ووسيلة روحية تهدف إلى أبعد من ذلك وأهم وهو ترقية الذات في الأبدية الأخروية بالإتقان والإحسان، حباً وتعبيداً للحق العدل الرحيم.

الآفة الثانية: تشوه الرؤية الكلية الإسلامية وما خالط ثقافة المسلمين من آفات وخرافات وشعوذات أوقفت تروس عجلة حضارتهم، وشوهت عقليتهم، وأفسدت معارفهم وممارسات حياتهم وأساليب تربيتهم، وباعدت بينهم وبين ماكانوا عليه من قوة التوكل على الله والتزام نهج السنن الإلهية في كل شؤون سعيهم وحياتهم.

لهذه الأسباب وهذه الآفات لم يستطع التعليم العالي في الأمة الإسلامية أن يؤدي حتى اليوم دوره بنجاح في ميادين المعرفة سواءٌ الدينية الشرعية منها أم المدنية، وسواء الإنساني منها أم التقني. وللأسباب نفسها لم يتمكن التعليم العالي من أن ينجح في نشر الثقافة وتوليد المعارف وتوفير الكوادر المتقنة المبدعة، وبقيت الأمة في تيه الفرقة وظلام الخرافة وعلى هامش المسيرة الإنسانية الحضارية.

إن إصلاح التعليم العالي وتفعيله قضية أساسية لإصلاح الأمة الإسلامية وإنهاضها وإنجاح مشروعها الحضاري ورسالتها العالمية، ولذلك يجب أن يمتد هذا الإصلاح إلى الجذور، ويزيل ما ألمَّ بها من تشوهات تبدأ بـ"إسلامية المعرفة" وأصالة منطلقاتها والتي تقتضي إصلاح منهج المعرفة وتوحيد مصادرها الإلهية والإنسانية؛ حيث يوفر الوحي البعد الكلي الروحي الأخلاقي لمجال الفعل الإنساني، وتوفر السنن الكونية والوسائل العلمية والتقنية لذلك الفعل، وتزول بذلك حواجز العجز والخمود، وتنطلق طاقات الفكر والدرس والبحث في الطبائع والوقائع على أساس مبادئ العقل، وسنن الكون، ومقتضى هداية الوحي.

إن "**إسلامية المعرفة**" في سلامة الرؤية الكونية ووحدة مصادر المعرفة والتزام منهج السنن تضيء رؤية العقل المسلم، وتدفع به قادراً في عباب بحر العلم والمعرفة، محرراً من كوابح الخرافات والشعوذات، ومن معوقات التناقضات والأوهام والضلالات. "إسلامية المعرفة" تحرر العقل المسلم من آفات الخرافات والأوهام والتناقضات ليخوض غمار العلم والمعرفة في شجاعة وثقة ومبادرة؛ طلباً للإصلاح والإتقان والإبداع؛ فيملك ناصية القدرة على الأداء الأخلاقي الجاد، ومجابهة التحديات، وحل المعضلات، وبلوغ الغايات، وتحقيق المقاصد.

إصلاح الرؤية الإسلامية وسلامة المنهج الفكري شرط أساس لتنقية الثقافة وإصلاح مناهج التربية والتعليم والتي هي شروط أساسية لإصلاح البناء الوجداني في النفوس، وتزويده بدليلِ الحركة وحافزِ الأداء. وإذا توافر دليل الحركة وحافز الأداء لدى العاملين فإن توظيف الوسائل والأدوات سيكون فعالاً حكيماً مؤدياً دوره في إنجاز المهمات، وتوفير الحاجات، وتحرير تروس حركة الأمة، وإطلاق طاقاتها الإنتاجية الأخلاقية والإبداعية.

وهكذا فإننا إذا شئنا أن نضع مسيرة الإصلاح على الاتجاه السليم، بعد قرون من التيه والتخبط، فإن علينا أن نعكس أولوياتنا في خطة إصلاح التعليم، وأن نقدم النوع على الكم، والمعاني على المباني، والمناهج على الوسائل، دون تقصير في حقِّ أي واحد منها بالقدر الذي يؤدي دوره ويخدم غايته دون تعارض أو قصور.

هذا التوازن بين الكم والكيف، وبين المعاني والمباني، هو حال الأمم التي تتمتع بقدرة الأداء؛ تعبر الثقافة والتربية ويعبر التعليم فيها عن شخصيتها ومنطلقاتها الحضارية، ويصدر عن مكامن الطاقة فيها، وحوافز الأداء في كيانها، وتضع شئون الثقافة والتربية والتعليم وإعداد الإنسان وتفجير طاقاته الإبداعية على رأس سلم أولوياتها، موفرة له الإمكانات كافة؛ حيث تتيقن أنه قد أصبح بحقٍّ أداتها في تحقيق الغايات والمقاصد.

أما الأمم المتخلفة فديدنها المحاكاة والتقليد، لاتعبر منظوماتها وأنظمتها التربوية والتعليمية عن منطلقاتها وقسماتها وخصوصياتها الحضارية؛ بل هي خليط ملفَّقٌ في رؤاه وتوجهاته، تأتي حاجات التربية والتعليم والتدريب ومستلزماتها في ذيل قائمة اهتماماتها، وهي أول المهام والوظائف التي تعاني من الشح حين تقع الأزمات ويتفاقم العجز والقصور، رغم اننا نعلم علم اليقين أن تجديد الطاقة وتحسين الأداء يعتمد بشكل أساس على نوعية الثقافة وعلى ترقية مناهج التربية والتعليم وسدِّ ثغراتها.

إسلامية المعرفة: تجربة حية في تفعيل التعليم العالي

إن إسلامية المعرفة هي قضية معرفية علمية تربوية نشأت وترعرعت في زمرة عقولٍ وضمائر اتسمت بالإيمان برسالة الإسلام وإدراك الروح والطاقة الحضارية التي أقامت حضارة الإسلام التي ارتفعت بالحضارة الإنسانية إلى آفاق جديدة كانت الأساس الذي بنت عليه الأمم اللاحقة حضارتها، وحققت به منجزاتها، كما عرفوا فضل قيم الإسلام التي بوَّأت الأمة في سالف عهدها مكانها المرموق في تاريخ الإنسانية.

لقد تميَّز تكوين هذه الزمرة التي نادت بإسلامية المعرفة وآمنت بها بالقدرة على الجمع بين معارف الثقافة والتاريخ الإسلامي من ناحية وبين الثقافة والعلوم المعاصرة من ناحية أخرى، كما تميز بقدر كبير من النضج والحنكة بسبب ممارساتها العلمية والوظيفية، أي إن تكوينها الفكري في مجموعها قد تميَّز عملياً بوحدة المعرفة التي تجمع بين معارف الوحي ومعارف العلوم الإنسانية والتقنية.

هذه الوحدة المعرفية في تكوين هذه الزمرة تبدت في كتابات مبكرة لبعض رجال الفريق الذي تصدى لهذه المهمة، ومنها كتاب "نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة" 1960م، وفي جهود الفريق في إنشاء جمعيةٍ ثقافيةٍ إسلامية كبرى هي "اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية 1963م، والتي تطورت لتصبح نواة لمؤسسات إسلامية مهمة وأساسية لحركة إسلامية المعرفة، وأهمها فكرياً جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في الولايات الأمريكية وكندا 1972م، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي 1981م، وأخيراً مؤسسة تنمية الطفل 1999م.

وأساس هذه الفكرة، أن جوهر أزمة الأمة وقصور أدائها، إنما هو قبل كل شيءٍ، بسبب ما أصاب الفكر الإسلامي في تطوره، في الأساس، من تشوهات شوهت الرؤية الإسلامية، وقضت على وحدة المعرفة فيه، وأحالت المعرفة الإسلامية، إلى معرفة دينية نصية ساكنة، كما همشتْ المعرفة الإنسانية في تكوين هذا الفكر وأدائه، ووأدت بذور العلوم الإنسانية التي تلمح برعمها في مفاهيم ومبادئ الأصول الثانوية لأصول فكر الفقه الإسلامي؛ مما انتهى إلى تدهور مؤسسات الأمة ووحدتها وأنظمة الحكم فيها، وتم تشويه الخطاب الديني ليصبح خطاباً ترهيبياً أدى –مع تفشي ظاهرة العجز الفكري والاستبداد السياسي– إلى تكوين شخصية سلبية لدى الأمة؛ أفقدها الطاقة الحضارية الإبداعية، وانتهى بها الأمر إلى الذل والتخلف؛ لأن الخائف الكاره يعمل الحد الأدنى، أما البذل والعطاء والإبداع فمن صفات المحب الراغب.

إن إسلامية المعرفة هي خطة لإعادة صياغة فكر الأمة على أساس ثوابت الإسلام ومنطلقاته الإنسانية العالمية الحضارية المبنية على أساس التوحيد والاستخلاف، وتهدف خطة إسلامية المعرفة إلى استعادة الرؤية الإسلامية الكلية الإيجابية التي تمثل الأساس والقاعدة والمنطلق، وتعمل على إصلاح المنهج المعرفي حتى يبنى على مفهوم شمولي تحليلي منضبط، وعلى وحدة للمعرفة الإلهية والإنسانية لاتنفصم، كما تستهدف واقع حياة الإنسان في هذه الأرض؛ لتحقق

مقاصد الشريعة في الإصلاح والخير، وتلتزم مبادئ العقل والسنن الإلهية في الكون، وهي بذلك توفر الوسائل الضرورية لتنقية الثقافة الإسلامية مما ألمَّ بها من تشوهات، وما داخلها من تخريفات وشعوذات ودسائس وأوهام؛ فتوفر في نهاية المطاف المدخلات الثقافية التربوية الصحيحة لإصلاح البناء العقلي والنفسي للفرد وللأمة المسلمة، ولإنشاء أجيال القوة والعطاء والقدرة بإذن الله.

لقد اعتبر "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" أن مهمته الأساسية إنما تكمن أولاً في توعية المثقفين والمفكرين والمربين على اختلاف اختصاصاتهم وتوجهاتهم بطبيعة الأزمة، وبوجوه الإصلاح التربوي، وتجلية الرؤية أمامهم ليحملوا بدورهم مسؤولياتهم في إصلاح الثقافة، وتنميتها، وإصلاح مناهج التربية وترشيدها، وتحريك كوامن الطاقة في كيان الأمة، حتى ترشد مسيرة حركتها بإذن الله.

لقد مدَّ المعهد العالمي للفكر الإسلامي يده إلى الصفوة الفكرية في مختلف حواضر الأمة الإسلامية والعالم في جهود فكرية مشتركة وفرت للمفكرين والعلماء المسلمين المنابر للحوار والفكر والإسهام، وتبلورت جهودها وخططهاعلى شكل مراكز ومؤسسات ومؤتمرات وندوات ومطبوعات ودوريات باللغات العربية والإنجليزية ولغات شعوب الأمة الإسلامية وغيرها، وحققت نشاطات مشتركة مع كل المهتمين بقضية الإصلاح الفكري والتربوي، أملاً واعداً، وقضية جدية مهمة، مطروحة على بساط الفكر العلمي الأكاديمي لسبر أغوارها وتفعيل طاقاتها في إعادة بناء فكر الأمة ومنطلقاتها الحضارية، وهذا من أهم المرتكزات لتوفير الشروط الضرورية لإنهاض الأمة وتحريك كوامن الطاقة في كيانها، وإنجاح مشروعها الحضاري لخدمة الإنسانية بإذن الله.

تجربة إسلامية المعرفة في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا

قامت الدولة الماليزية المستقلة عام 1956م وأخذت تتحسس طريقها في بناء دولتها الوليدة، وتنبهت قيادتها إلى دور الإسلام في تحريك كوامن الطاقة في شعبها المسلم، فأنشأت بتأثير من المؤتمر الإسلامي الأول للتعليم المنعقد في مكة المكرمة عام 1977م الجامعة الإسلامية العالمية في كوالالمبور 1983م باتفاقية دولية مع منظمة المؤتمر الإسلامي ضمن منظومة سلسلة الجامعات الإسلامية العالمية التي هدفت المنظمة أن تعنى في برامجها بالثقافة الإسلامية.

وتنبهت القيادة الماليزية إلى طبيعة الفكر الإصلاحي الحضاري البنَّاء الذي يصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي عقد أحد مؤتمراته الدولية عن إسلامية المعرفة وإصلاح النظام المعرفي في كوالالمبور عام 1984م؛ حيث كان وزير التربية الماليزي في حينه الأستاذ أنور إبراهيم وثيق الصلة به منذ كان عضواً في الأمانة العامة للندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض؛ لذلك دعت وزارة التعليم الماليزية عام 1988م المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلى تبني جامعتها الوليدة (ألف طالب جامعي) وطلبت إليه انتداب أحد رجال المعهد لوضع مفاهيم إسلامية المعرفة ومنطلقاتها في خطة تربوية جامعية خدمة للإسلام وأهداف الإصلاح والتنمية في ماليزيا.

وتسلم المعهد الجامعةَ في شخص أحد رجاله المفكرين من أصحاب الخبرة التنظيمية والجامعية، ولمدة عشر سنوات (1988-1999م) تم خلالها بناء الجامعة مادياً وأكاديمياً لتضمَّ برامجها وكلياتها علوم الدراسات الإسلامية والإنسانية كافة إلى جانب علوم العمارة والهندسة والطب، في حرمين جامعيين، وحرم لإعداد الطلاب في اللغتين العربية والإنجليزية وللدراسات التكميلية للطلاب القادمين من أنظمة تقصر في بعض الوجوه عن حاجات الطالب المسلم ومتطلبات الالتحاق بالجامعة (ومنهم طلاب دول الاتحاد السوفيتي سابقاً وطلاب نظام الثقافة العامة)؛ حيث لايزيد إعدادهم التعليمي على إحدى عشرة سنة دراسية.

الروح والجسد:

لقد جاء تخطيط الحرمين الجامعيين – الحرم الرئيس في كوالالمبور والحرم الطبي في كوانتن (كلية الطب وكلية العلوم) – ليعبر معنى ومبنى عن مفاهيم إسلامية المعرفة ومنطلقاتها، وتجسدت هذه المفاهيم والمنطلقات في الحرم الجامعي بكوالالمبور الذي اكتمل بناؤه اليوم إلا بعض المرافق والخدمات الملحقة به.

لذلك فإن الإنجاز في هذه الجامعة وفي هذا الحرم (خمسة عشر ألف طالب) لم يقتصر على الإبداع والتجديد في مناهجهما وبرامجهما؛ بل تعداه إلى جمال عمارته الإسلامية وخطة بنائه، مما جعله من أجمل الحرَم الجامعية في العالم، بما يعبر عنه من قيم الإسلام في جمال البناء، وفي كفاءة الأداء.

فالحرم الجامعي يتوسطه المسجد الذي يمثل مركزه الروحي، وتتدفق من حوله حركة الطلاب والعاملين في كل اتجاه، ويوفر ساحة مهمة للنشاطات الروحية الثقافية الإسلامية، كما توفر أفنية الحرم واتصال مرافقه روحاً من الألفة

الثقافية والاجتماعية، كما جاء توزيع مواقع السكن والترفيه والرياضة ملتزماً الضوابط الإسلامية التي توفر لكل جنس من الجنسين الخصوصية والحرية والتزام أخلاق الإسلام في علاقة الجنسين، مع كفاءة الأداء والاستجابة للحاجات النفسية والاجتماعية والثقافية والترويحية والرياضية كافة.

معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية:

إن البرنامج الأكاديمي والتربوي هو بيت القصيد في نظام الجامعة، وجاءت خطته تعليمية تربوية تجسد أهداف إسلامية المعرفة، وتعالج التشوه الفكري والمنهجي، وتبني آلة التنقية الثقافية، وتعمل على إعادة البناء النفسي والتربوي لأجيال الأمة.

كانت المهمة الأساسية الأولى في خطة عمل إدارة الجامعة هو التصدي للتشوه المعرفي والمنهجي الذي أصاب فكر الأمة وشلَّ قدرتها على الإصلاح والبناء وإيجاد الكوادر المثقفة العاملة البديلة التي يتسم فكرها بوحدة المعرفة وشمولية المنهج، وكان أهم ميادين هذا المنهج العلمي الأكاديمي البديل هو ميدان العلوم الإسلامية والإنسانية.

ولهذا الغرض أنشئت كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية لتكون أكبر كلية تضم التخصصات العلمية كافة في حقل الدراسات الإسلامية والعلوم الاجتماعية والإنسانية، عدا العلوم الاقتصادية والإدارية والقانونية لأسباب مهنية، على الرغم من أن برامجها لها نفس الغاية وذات الهدف.

وكان حجر الزاوية في النظام الأكاديمي لهذه الكلية لتحقيق وحدة المعرفة الإسلامية وإصلاح مناهج الفكر وإيجاد الكوادر الثقافية القيادية والمهنية البديلة هو نظام التخصص المزدوج عن طريق نظام الساعات المعتمَدة.

وعلى أساس نظام التخصص المزدوج فإن أي طالب أو طالبة يكون تخصصه الرئيس هو الدراسات الإسلامية فإن عليه أن يختار تخصصاً فرعياً في أحد العلوم الإنسانية، والعكس بالعكس، فإن أي طالب أو طالبة يكون تخصصه الرئيس أحد العلوم الإنسانية تكون الدراسات الإسلامية تخصصَه الفرعي، ومن يمد دراسته عاماً دراسياً إضافياً يمكنه أن يستكمل متطلبات الدرجة الجامعية (البكالوريوس) الأخرى، وهو ما كانت الجامعة تشجع طلابها عليه؛ فتكون لديه درجة جامعية في الدراسات الإسلامية ودرجة جامعية في العلوم الاجتماعية في الميدان الذي اختاره الطالب أو الطالبة تخصصاً فرعياً في الأساس.

وهذا الازدواج في المعرفة والتخصص لايوفر فقط لكل طالب أفقاً معرفياً واسعاً متكاملاً في توجهه وأداته، أو في إدراكه الأفضل لأبعاد الحياة الإنسانية الروحية الأخلاقية والإجتماعية المعاشية فحسب؛ بل يوفر أيضاً للطالب أو الطالبة التكامل المنهجي الجزئي (منهج القياس في الدراسات الإسلامية)، والكلي (منهج الدراسات الاجتماعية) بوسائلهما العلمية المختلفة، وهو أمر منهجي مهم في تكامل بناء عقلية الطالب، وفي مستقبل قدرته على الأداء.

ولم يخدم هذا النظام المعرفي جانبَ توسيع مدارك الدارس إلى الجوانب العامة الاجتماعية (دراسات اجتماعية)، إلى جانب البعد الروحي والشخصي (دراسات دينية وأخلاقية)، مما يمكنه من توسيع مدارك الطالب وتوفير الأداة الفكرية لديه للتواصل مع روح الأمة وكيانها النفسي والمعرفي، والقدرة على توظيف مفاتيح الحركة والطاقة في كيانها فحسب؛ كما توفر هذه الإزدواجية (دراسات اجتماعية ودراسات إسلامية) للطالب مجالاً وظيفياً يفيد من طاقات (الكوادر) ويحفظ لها كرامتها، خاصة في بلاد الأقليات الإسلامية والبلاد الإسلامية الفقيرة التي تقل فيها فرص العمل ولاسيما في مجال الخدمات الدينية، حيث يمكن للخريج أن يعمل – بمؤهله في العلوم الاجتماعية بجانب إجادته اللغة الإنجليزية التي درس بها المواد الفنية، إجادته اللغة العربية التي درس بها الدراسات الإسلامية – في أي مجال مدني مناسب يرغب فيه؛ وبذلك يتمكن من أن يكون أحد (الكوادر) العاملة في مجال العمل الحكومي أو التدريس أو في مجال الشركات والأعمال الخاصة، وليس في مجال الحِرَف – كما هو الحال في إعداد بعض طلاب الدراسات الإسلامية في بعض الجامعات الإسلامية – والتي لاتناسب طبيعة قدراته وإعداده؛ فيكون الخريج صاحب القدرة في مجال الدراسات الإسلامية والدراسات الاجتماعية، على كل الأحوال أكثر تكاملاً وفكراً وإدراكاً وأداء وتأثيراً من سواه.

وأتاحت الجامعة في هذا النظام المجال لخريجي الجامعات الأحادية المعرفة للالتحاق بالدراسات العليا لديها إذا استكمل الشروط اللازمة لتلقي المعرفة ضمن نظام دراستها الذي يلتزم الإلمام بمعارف الوحي الإسلامي إلى جانب المعرفة الانسانية في أي مجال من مجالات المعرفة الذي تخصص فيه الدارس.

فأي طالب يرغب في دراسة الشريعة الإسلامية، في أي فرع من فروع المعرفة، على مستوى الماجستير أو الدكتوراه، يمكنه ذلك بعد استيفاء شروط الدراسة في هذا الفرع، وهو إجادة اللغة العربية، وإجادة عدد المساقات الأساسية في علوم الشريعة لتأهيله للدراسة والنظر العلمي في هذا المجال، أما إذا كان من طلاب الدراسات الشرعية

أصلاً فإن عليه أن يتأهل في أساسيات علم من العلوم الاجتماعية ومناهجه الكلية، وفي اللغة الانجليزية، إلى جانب اللغة العربية التي يفترض فيه أنه يجيدها أساساً.

وإذا كان المعهد العالمي للفكر الإسلامي قد قدم هذه الفكرة قبل ذلك إلى بعض الجامعات في العالم الإسلامي، إلا أنّ تلك الجامعات عادت وألغت هذا النظام، وقصرت الدراسات الإسلامية فيها على خريجي أقسام تلك الدراسات، وعادت بهم إلى أحادية المعرفة؛ وذلك لأنّ تلك الجامعات لم تتمكن من ناصية العلوم الاجتماعية وتطوير تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بشكل فعّال، إلى جانب ترجيح الكم على الكيف في اختصار فترات الدراسة.

وقد نجحت الجامعة في برنامجها لعدة أسباب أهمها إقبال طلاب الجامعة ذاتها الذين سبق تأهيلهم في مجال الدراسة الشرعية والدراسات الاجتماعية ومناهجهما على مواصلة دراساتهم العليا في الجامعة، كما قامت الجامعة بتطوير برنامج تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في سلسلة تعد اليوم أفضل ما يقدم في هذا المجال، وكذلك فإنّ أبناء الجامعات الأخرى أبدوا حماسة شديدة في الالتحاق ببرنامجح الجامعة الذي اشترط لقبول طلباتهم إجادة اللغة العربية والانجليزية أولاً قبل النظر في قبول طلباتهم؛ مما جعلهم يبذلون غاية الجهد في تعلم هاتين اللغتين لمن لا يجيدهما أو لايجيد واحدة منهما في بلادهم، أو أن يلتحق الطالب منهم ببرامج الجامعة الاعدادية لتعليم اللغات على نفقتهم، ولذلك فإنّ الجامعة لم تعان من الإقبال على برامج دراستها العليا، وكان الاقبال النوعي على برامجها أكبر من طاقة أدائها، وبذلك أصبح برنامج الجامعات للدراسات العليا – بما يوفره من وحدة المعرفة ومناهج النظر والبحث العلمي – قادراً على إمداد الساحة الفكرية بأصحاب خبرة ودراية علمية إنسانية في مختلف فروع المعرفة، ومن منطلق ومنظور إسلامي يرتكز إلى ثوابت الإسلام ومبادئه وقيمه ومقاصده.

أما تطوير المادة الدراسية التي يتلقاها الطالب في كل حقل من حقول الدراسة من منظور إسلامي فقد نظِر إليها على أنها عملية تطويرية مستمرة تعتمد على معرفة الطالب بكل ما يقَدَّم إلى نظرائه من مادة علمية في الجامعات المدنية مضافاً إليها تقويم إسلامي ناقد وعرض لما نضج من وجهات النظر الإسلامية في المجالات المطروحة؛ بحيث يشكِّل المنظور الإسلامي إضافة علمية لها وزنها الأكاديمي تؤدي إلى زخم علمي رزين في المجالات العلمية، يمكنه مع

مرور الوقت إثبات مصداقيته وتطوير مجالاته بما يخدم مصالح الأمة بشكل حقيقي في المجال المعرفي، وفي نوعية (كوادره) في الأداء والإنجاز، ويقدم بدائل فكرية وعلمية في المجالات العلمية والحياتية المختلفة.

كما تم تطوير العديد من المقررات الدراسية والمجالات العلمية الأكاديمية المتعلقة باعتبارات وحاجات خاصة تتعلق بالأمة ومنظورها في المجالات الدينية والفلسفية والقانونية والانسانية والاقتصادية والإدراية يمكن الرجوع إلى العديد منها في دليل الجامعة للدراسات الجامعية والدراسات العليا في مناهج الكليات والأقسام العلمية المختلفة.

ويمكن الإشارة هنا بوجه خاص إلى مجال "الدراسات الغربية" الذي بدأ اختصاصاً جزئياً ليطور تدريجياً إلى اختصاص رئيس، ويهدف هذا القسم إلى دراسة الغرب تاريخاً، وفكراً، وحضارة، دراسة مفاهيمية (Conceptual) دقيقة فاهمة تعين على تكوين (كوادر) علمية متخصصة يستعين بها العقل المسلم في في فهم الغرب في ذاته وما له حضارياً وانسانياً وما عليه حتى يمكنه حسن الاستفادة من التواصل والحوار مع الغرب؛ لإنجاح مشروع الإصلاح الإسلامي، ولتطوير العلاقة مع الغرب إلى علاقة تعاون إيجابي بناء تمَّحي معها المظالم والإحن والتعديات التي يساعد عليها تخلف العالم الإسلامي وضعفه وتمزقه، أي أن يكون تفاعل الأمة مع منجزات الحضارة ومع مجتمعاتها مبنية على فهم علمي وأسس منهجية يلتقي بها العقل المسلم مع هذه الحضارة بصفتها منظومة حضارية لها سماتها ومنطلقاتها وغاياتها، وأن الهدف من التفاعل معها هو التلاقح الإيجابي وخير الإنسان وحضارته الكونية.

أما في مجال الدراسات العلمية الفيزيائية والهندسية وما في حكمهما من المجالات والمهن فإن إسلامية المعرفة فيها لاتتعلق بالحقائق العلمية وما ركِّبَ في المواد والكائنات من مقادير وسننٍ إلهية؛ فإن إدراكها يستوي فيه جميع البشر؛ ولكن الاختلاف والتفاوت إنما يتأتى من منهج التعامل معها والاستفادة منها، وفي وجوه تسخيرها، وفي معيار أخلاقيات التعامل معها إصلاحاً أو فساداً، وتوخي النفع أو جلب الضرر، وهذا كله من باب العقيدة والثقافة الإسلامية وفلسفة العلوم وأخلاقيات البحث العلمي ومزاولة المهن، وهنا تختلف الرؤى والمشارب والمآرب والحضارات، ويكون للمنظور الإسلامي موضعه ودوره في الإصلاح والترشيد الذي يميز الخبيث من الطيب، والنافع من الضار، والإنساني من الحيواني، ويستعيد روحانية الحياة ونبل غايتها.

والمجال الآخر الذي يتعلق بالعلوم الفيزيائية وإعداد (كوادرها) هو مجال الوعي بتاريخ الأمة والإنسانية وإنجازاتها لإنصافها من التحيّز الغربي الظالم، ولتعزيز روح الثقة بالنفس لدى (كوادر) الأمة العلمية، وشحذ الهمم لاستئناف

المسيرة، مع أخذ الدروس والعبر من فهم الأسباب التي عوَّقت الركب وضلَّت السبيل وحادت بالعقل المسلم عن جديته وعلميته إلى مزالق الأوهام والخرافات والتخلف.

المهم هنا في صياغة آلية منهج إسلامية المعرفة هو مفهوم العملية التطويرية للبرامج (process) التي تمثل استمرارية العمل والمثابرة عليه لتحقيق غايات حضارية حيَّة تمثل حركة ونمواً وتدافعاً لايتوقف، وتغني الفكر والثقافة، وتستجيب لحاجات المجتمعات الحية المتطورة وواقعها، منطلقة في ذلك من منطلقات أخلاقية ثابتة إلى غايات ومقاصد خيرة معلومة.

إن تطوير مادة المقررات الدراسية وتطور نوعية هذه المقررات كانت على الدوام – على أساس منطلقات إسلامية المعرفة – في تنامٍ وتجدد مستمر، في ضوء الخبرة والتجربة والتجاوب المستمر لحاجات الأمة والمجتمع، ودعم البناء المعرفي المتجدد لطلاب الجامعة، وتوسيع آفاقهم تجعلهم يتمتعون بطاقات علمية ونفسية كامنة تجعل الكثير من الشركات والمصالح الحكومية في بلد المقر (ماليزيا) لاتسعى إلا إلى توظيف خريجي الجامعة الإسلامية لما يتحلون به من مقدرة وخلقٍ وجدية وثقافة ومهارات وطاقة كامنة؛ إلى الحد الذي رجا فيه العديد من الرسميين وزوار الجامعة في البلاد الإسلامية مساعدتهم على تخريج مثل هذا النوع المتميز من (الكوادر) العلمية والمهنية ذات الكفاءة العالية.

اللغات والتعريب:

وإذا كان الفكر والمنهج هو اللب فإنّ اللغات هي أداة الأداء، ولذلك فإنّ للغة أهمية كبرى في فاعلية الأداء، وكلما كانت أداة الأداء قادرة وميسرة كان نجاح الأداء أوفر حظاً وأكبر.

وقد أولت الجامعة قضية اللغة فيها عظيم الاهتمام للتأكد من قدرة الخريجين على حسن الأداء وفاعليته، وتوفير فرص التلقي والعطاء والتواصل فيما بينهم وبين البيئات التي سيعملون فيها؛ ولذلك وفرت الجامعة لطلابها إلى جانب ما يجيدونه من لغات بلادهم ولسان أمهاتهم إجادة اللغات العالمية العربية والإنجليزية التي توفر لهم يسر الوصول إلى منابع المعرفة على وجوهها الإسلامية والمعرفية والتقنية، ضمن الظروف والمعطيات القائمة في عالم الأمة.

لقد حرصت الجامعة على توفير وسائل تعلم اللغة العربية واللغة الإنجليزية على أفضل المناهج العلمية المتطورة، وبمادة وتوجيه إسلامي، لتكون اللغة العربية لغة الثقافة والمعارف المقاصدية الشرعية الإسلامية، ولغة التواصل الوجداني

الإسلامي بين أبناء الأمة، وتكون اللغة الإنجليزية – في هذه المرحلة التي تضعف وتقل المادة العلمية والتقنية في اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية – لغة المعارف العلمية والتقنية المعاصرة، مما يوفر لهم لغة الحضور على ساحة الفعل والتواصل مع الصفوة الفكرية والثقافية والعلمية والسياسية في هذه المرحلة في جل بلاد الأمة الإسلامية. وبهاتين اللغتين (العربية والانجليزية) يصبح لخريجي الجامعة القدرة على التأثير على صعيد الفعل بتوفيق فكري وعلمي ووجداني في بلادهم، ويصبحون مصدراً لإنماء الفكر والمعارف في مجتمعاتهم ومجالات أدائهم.

إنّ الأمل أن تتصدى المؤسسات الإسلامية الثقافية والعلمية، المحلية والدولية، مستقبلاً لحل الإشكال اللغوي في الأمة بشكل جذري، ذلك الإشكال الذي أسهم وما يزال يسهم في ضعفها الحضاري وتمزقها السياسي. فما لم يكن الأداء العلمي والثقافي باللغة الأولى للشعوب فإن ثقافتها ستكون – معرفياً – ضعيفة، وحرصاً على تلقٍ قاصرٍ على القلة التي تجيد اللغات الأجنبية العالمية، التي تتوافر فيها المواد المعرفية العلمية وأهمها اللغة الإنجليزية على أنها في هذه الحالة غالباً ما تكون لغة ثانية لا تسمح لهم بالقدرة على الإبداع؛ لأنّ الابداع لا يكون إلا باللغة الأولى للمبدع.

والأمة الإسلامية لا يمكنها أن يكون لها وزن علمي وثقافي عالمي إلا بلغة عالمية واسعة الانتشار، لغة غنية بالمادة العلمية وخاصة المعرفة الفيزيائية والتقنية، وهذا الشرط لا يتوافر لهذه الشعوب إلا في لغة القرآن التي ترتبط كل الشعوب المسلمة وجدانياً بها، والتي يلم – حتى الأمي منهم من خلال القرآن – بقدر لا بأس به منها فيما لو فعِّل منهجياً لأمكن أن يوفر لهذه الشعوب لغة عالمية مرغوبة أولى مشتركة بينهم، توفر المادة العلمية التقنية لهم، وتغني ثقافاتهم ووجدانهم بأقل التكاليف.

إنّ الشعوب الإسلامية لن تتوانى عن تبني لغى القرآن لغة دينية ثقافية علمية أولى إلى جانب لغاتهم المحلية ولهجاتهم العامية؛ وذلك لما يكنونه من حب وتعلق بالقرآن إذا تيسرت لهم وأغنتهم في حياتهم عن طلب ما سواها من اللغات. كل ما على العرب والمسلمين هو التدبر في تجاربهم الماضية في التعريب، وفي تجارب الأمم المتقدمة الحاضرة في نقلها الدائب السريع لكل حرف جديد من المعارف، خاصة المعارف الفيزيائية والتقنية، في اليابان وروسيا والصين وألمانيا والولايات المتحدة وسواهم.

إنّ أهم ما يجب أن يبدأ به المسلمون في جهود الترجمة إلى اللغة العربية هو الاهتمام بترجمة الدرويات العلمية والتقنية إلى اللغة العربية لأنها هي القناة التي سيل من خلالها أولاً تدفق الجديد من المعارف في مختلف المجالات، وأن

يتم توفيرها للمؤسسات العلمية والتعليمية والمكتبات العامة بشكل سريع ومنظم على شاكلة ما يتم في الدول التي حققت التفوق العلمي في وقت قصير.

إنّ تكلفة إنشاء مؤسسات للترجمة العلمية والنشر العلمي الذي يتوافر على ترجمة الجديد من العلوم والمعارف والدوريات بشكل منظم، وتوزيعه بشكل فعّال، أقل مما تتكلفه مؤسسة جامعية كبرى واحدة في الكثير من عواصم العالم الإسلامي.

إنّ انتشار المعرفة العلمية بلغة القرآن سوف يزيد الطلب على هذه اللغة وعلى ما فيها من معارف دينية وثقافية وعلمية وتقنية، ويجعل مشاريع الترجمة تجارية، وتتم في وقت قياسي، ويجعل تعريب الدراسة في التعليم أمراً يسيراً وفعّالاً، ويلغي كل الحجج التي تعارض التدريس باللغة العربية؛ لا بسبب اللغة وقدراتها الفائقة على التعبير بكل ألوانه، ولكن بسبب العجز عن إمداد لغة القرآن بالجديد من المعارف على شاكلة اللغات العالمية ولغات الشعوب الحية المعاصرة.

إنّ الترجمة العلمية المتدفقة سوف تحل ذاتياً مشكلة المصطلحات، وتروج لمصطلحات موحدة من خلال النشر والاستعمال، ويدعم هذا الجهد قيام مجمع لغوي جامع تشترك في جهوده المجامع اللغوية القائمة، في جهود موحدة لمواكبة أعمال التعريب والترجمة بالمصطلحات الموحدة بعيداً عن النعرات المحلية والنزعات الانعزالية ذات الدوافع السلبية والتي تمثل أو تستجيب لأهداف أجنبية واستعمارية.

التيسيير اللغوي: النحو والإملاء:

ولقد آن الأوان لمجامع اللغة العربية لبذل المزيد من الجهد لتيسير الإملاء والنحو العربي؛ بمعيار فهم القرآن والحفاظ على سلامة فهمه، وفي ذلك أيضاً ضمان لفهم التراث وصيانته، وما عدا ذلك يمكن تحاوزه لتيسير تعلم اللغة وسلامة استعمالها في عصر أصبح التعليم والثقافة حقاً للجميع، وليس للخاصة والمختصين، مع تعاظم مطالب المعرفة وتوسع آفاقها.

ولما تيسره أدوات المعرفة الإلكترونية من مزيد من القدرة على التعامل مع اللغة وكشف أسرارها، وتذليل صعابها، فإنه أصبح من الممكن في يسر وسهولة الإحاطة التحليلية بكل شواهد اللغة وقضاياها بما لم يكن متيسراً لعلماء اللغة

من قبل، ولذلك فإنّه من المأمول أن توفق جهود علماء اللغة في هذا العصر إلى القضاء على كثير من إشكالات نحو اللغة وإملائها مما لا طائل من ورائه، ولا فائدة ترجى منه.

ومن الأمثلة على بعض مصاعب اللغة التي لا يبدو أن لها في عصر الثقافة للجميع حاجة هو تعقد وتعدد قواعد كتابة الهمزة في الإملاء العربي في أول الكلمة، وفي وسطها، وفي آخرها، حيث يشترط فيها معرفة حركتها وحركة الحرف الذي قبلها، وهو ما لا يشترط في كتابة باقي حروف كلمات اللغة العربية، ولشدة تعقد هذه القواعد وصعوبتها حتى على من يصيب معرفة حركة الهمزة فإنّ جلهم يخطئون في كتابتها صحيحة، وكأنما قد وضعت هذه القواعد لإثبات جهل الناس بها؛ لا لتقويم إملائهم في كتابتها. وعلى هذه الشاكلة يكون أمر الحروف اللينة حيث نجد الألف في نهاية فعل (رمى) تكتب ألفاً مقصورة على صورة اليا، بينما في نهاية فعل (دنا) ألف مطلقة؛ حيث تكتب ألفه على صورة الألف العادية للدلالة على أصله الواوي.

ومن الواضح أنّ الشخص الذي يستطيع أن يعرف أصل الفعل إن كان يائياً أو واوياً ليس في حاجة إلى الألف اللينة (التي هي على شكل الياء) ليفرق بين الفعل الواوي والفعل اليائي، أما من لا يدرك أصل الفعل، هل هو يائي أو واوي، فالغالب أنه سيقع في الخطأ، أو أنه في أحسن الأحوال سيكتب الكلمة تقليداً لا يدرك له معنى، يصيب فيه أحياناً، ويخطئ فيه أحياناً، والأمر على كل الأحوال قواعد لا يجنى في الحقيقة من ورائها فائدة تذكر، ولا فائدة من إثقال اللغة وعامة المتعلمين بها غير تعثر إملائهم والضغط على ذاكرتهم بسببها، وهذه لا تعدو أن تكون أمثلة، إذ هناك الكثير مما يجب أن يبسط وأن يوحد، ومنها: الألف في آخر الفعل الماضي أو المضارع المنصوب أو المجزوم أو الأمر: كتبوا – لن يكتبوا – لم يكتبوا – اكتبوا، بينما تحذف هذه الألف حينما يضاف جمع المذكر السالم المرفوع بالواو إلى اسم بعده: حضر مدرسو المدرسة. ومنها كذلك ألف المد المحذوفة المقدرة من: هاذا، هاذه، لاكن، ذالك، أولائك... وغير ذلك كثير.

ومن المهم كذلك إعادة النظر في بناء قواعد اللغة وتعليمها، فإذا كان من المهم ملاحظة التفريق بين الفاعل والمفعول به خاصة فيما لو قدم المفعول به على الفاعل، لأن ذلك يؤثر في فهم حقيقة المعنى، وإن كان الفرق في الحركة لا يفيد حين تكون الأسماء منتهية بالألف المقصورة مثل (ليلى، منى) حيث يصعب معها معرفة الفاعل من المفعول به بواسطة الحركة، ولابد هنا في هذه الحالة من الترتيب والسياق لمعرفة المعنى. إلا أن التفرقة بالحركة قد لا

يكون له شيء من الأهمية في فهم المعنى في حالة الفرق بين الصفة والحال، فحركة الإعراب ذاتها لا تؤثر على فهم من صفته كذا، وحالة كونه كذا، فكلها في نهاية المطاف وصف، ومثل هذا يدعو إلى إعادة النظر في أمر كثير من قواعد النحو وما نراه أن تعطي حركة الإصلاح اللغوي الأهمية لبناء التراكيب وسياق الأداء الذي يؤثر على إدارك المعاني بعيداً عن الشكليات والتراثيات والمهنيات التي تتعلق بالمعاني في بناء قواعد اللغة وتعليمها في عصر الثقافة للجميع، ويؤكد ضرورة تيسير اللغة الفصحى لأبناء الأمة وتيسير القدرة على استعمالها بشكل مناسب فعال في عصر لم تعد الثقافة فيه وقفاً على الخاصة أو على المتخصصين.

إنّ على علماء اللغة العربية في هذا العصر بذل الجهود العلمية لتيسيرها ورفع كفاءة أدائها دون مساس بالضروري لفهم القرآن الكريم والتواصل مع معانيه وأساليبه، خاصة إذا ذكرنا أن تعدد أساليب العرب في استعمالهم للغة لم يؤثر في الماضي – ولا الحاضر – على التواصل فيما بينهم ولا على بلاغة أدائهم.

وعلى الرغم من وعي المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ووعي الجامعة، بأهمية إثراء لغة القرآن، والعمل على إحلالها محلها الصحيح، إلا أن الأمر يذهب بعيداً فيما وراء إمكانية أي أحد منهما، وكان أقصى ما أمكن ضمن هذه الإمكانيات هو جعل اللغة العربية لغة أساسية في التعليم الجامعي في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وتوفير المصدر الثقافي المباشر لـ (كوادر) الأمة وصفوتها الفكرية، كما اهتم المعهد العالمي للفكر الإسلامي والجامعة بإصدار دوريات علمية باللغة العربية إلى جانب اللغة الإنجليزية، ونشر الأعمال والأبحاث الفكرية الثقافية باللغة العربية إثراء لثقافة الأمة وفكرها، وباللغة الانجليزية وسيلة عالمية معاصرة إلى كثير من الشعوب والصفوة العلمية في كثير من بلاد العالم المعاصر.

إنّ من المهم للجهات المعنية الرسمية وغير الرسمية، والخيرية والتجارية، والمحلية والدولية، أن تولي أمر الترجمة العلمية عامة وترجمة الدوريات العلمية العالمية المهمة بوجه خاص إلى لغة القرآن، وإغناء هذه اللغة وتأهيلها لتكون لغة الشعوب الإسلامية الثقافية العلمية الأولى. إنّ على منظمة الأيسيسكو والألسكو والحكومات الإسلامية والمؤسسات العلمية والبحثية في العالم الإسلامي واجب التعاون من أجل تنسيق الجهود بينها لإخراج هذه الخطة إلى حيز الوجود، وإنجاح مشروع وحدة الأمة، وإنجاح مشروعها الحضاري لخير الإنسانية.

إن من الوهم أن نحلم بنقل العلوم والتقنية إلينا من قبل الآخرين لأن العلوم والتقنية الحديثة علوم جد متطورة، وبسرعة مذهلة، لا يملك ناصيتها إلا من كان مؤهلاً للعطاء العلمي والتقني، ويتمتع بعقلية علمية وقدرة إبداعية وثقافة غنية، ولذلك لابد من البدء بتأهيل أبناء فكر الأمة و (كوادرها)، وتفعيل طاقة هذه (الكوادر) وإثارة حماسها، وإصلاح مناهج فكرها وثقافتها، وإغناء ثقافاتهم –وخاصة الثقافة العربية– بكل عمل علمي وتقني جديد، على أن يتم ذلك باللغات الأولى لأبناء شعوب الأمة، على أن يتم توحيدها ثقافياً على مراحل على لغة القرآن وبخطة علمية حضارية محكمة.

إنّ الأمر جد يسير إذا صح العزم وصحت الرؤية لتستكمل الأمة أدوات قدرتها وعطائها وتفعيل مؤسساتها و (كواردها) العلمية والتقنية إن شاء الله.

تنمية المعرفة والبحث العلمي:

وتمثل تنمية المعرفة ودفع جهود البحث العلمي الوجه الآخر للنشاط العلمي في مجال إسلامية المعرفة بالجامعة.

فإذا كانت الدراسات الجامعية الأساسية وتكاملها في جميع الفروع ضروري لإعداد (كوادر) تتمتع بوحدة المعرفة وتكاملها، وبالقدرة المنهجية، ولتوفير المجال العلمي المتكامل للدراسات المتكاملة والمقارنة؛ فإن الدراسات العليا وأبحاث الأساتذة وأبحاث طلاب الدراسات العليا وجهود مراكز البحث العلمي وتفاعل جهود البحث العلمي مع الحياة والمجتمع، ونشر الأعمال العلمية، وإصدار الدوريات العالمية، وتنظيم اللقاءات والندوات العلمية في الجامعة، وبين أعضاء هيئة التدريس، وإجراء الحوارات، وبحث القضايا والاهتمامات العلمية، وتبادل الآراء والخبرات فيها، وتنظيم الندوات والمؤتمرات العلمية العالمية بالتعاون مع الهيئات والمؤسسات العلمية والدولية؛ كانت موضع اهتمام الجامعة ورعايتها القصوى، مما جعل الجامعة خلال هذه الفترة القصيرة منبراً ومناراً علمياً في المجالات الدينية والإنسانية والطبية والهندسية، وعقدت في رحابها العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية في العديد من المجالات العلمية.

وقد أقامت الجامعة –منذ اليوم الأول– برنامجاً واسعاً للدراسات العليا على مستوى الماجستير والدكتوراه في عدد من فروع الدراسات الإسلامية والإنسانية والتربوية، وفي مجالات الدراسات القانونية والاقتصادية، وفي مجالات الدراسات الهندسية، ووفرت لها الوسائل العلمية المكتبية والمختبرية والمعملية، وأقامت جسور التعاون مع مختلف المؤسسات العلمية والصناعية، وقد أثمرت هذه السياسة وهذا الاستعداد لتوفير الكثير من وسائل العمل بالتعاون والتبادل مع مختلف الجهات ذات الاهتمام المشترك، وأنتجت زخماً من الأبحاث العلمية من قِبَلِ أعضاء هيئة التدريس ومن طلاب الدراسات العليا، وقد حرصت الجامعة على العمل من أجل رفع مستوى هذه الأبحاث وتوجيهها نحو خدمة قضايا الفكر الإسلامي وحاجات الأمة.

كما قام مركز الأبحاث والمجلس العلمي للجامعة ولجانه في كليات الجامعة كافة بتوفير الدعم، وتشجيع الباحثين، وتبني مشاريعهم، بالتعاون مع المؤسسات والشركات والجهات العلمية والصناعية، كما عملت على تبني خطط بحثية مدروسة استجابة لحاجات مهمة؛ وكانت الجامعة تقوم بخفض العبء الدراسي لكل من يثبت قدرة بحثية متميزة يتناول بها أولويات الجامعة والأمة في البحث، يصل إلى حد الفراغ الكامل لبعض هذه المشاريع البحثية، وقد حرصت الجامعة لتحقيق وحدة المعرفة وتكامل المناهج في تأهيل طلابها، وفي حدود البحث العلمي بها، على أن تفتح أبوابها لأصحاب القدرة العلمية والخبرة العلمية لينضموا إلى سلك التعليم والبحث العلمي بها، من القضاة والمحامين المبرزين، ومن رجال الأعمال الناجحين، ومن العلماء الخبراء الباحثين، بشكل دائم أو شكل إسهام جزئي، في مجال التعليم والبحث، أو في مجال المشورة والنصح والمشاركة في مجالس ولجان توجيه الجامعة وتطوير خططها ومناهجها.

من هذه المشاريع البحثية التي تم تفريغ بعض الأكاديميين مشروع تطوير المناهج والكتب الدراسية، ووضع خطة تنظيم تعليمية لمدرسة نموذجية إسلامية عالمية تكون نواة لنظام مدرسي إسلامي عالمي يغطي مراحل التعليم العام كافة من الروضة حتى نهاية المرحلة الثانوية، ويكون مبنياً على الرؤية والمفاهيم الإسلامية، ويقدم للطفل ثقافة إسلامية إيجابية حضارية صافية وعقلية منهجية علمية سليمة غير مشوبة بانحرافات وتشوهات الخرافات والشعوذة وبقايا موروثات التقاليد والحضارات الغابرة، ويعيد بناء مفاهيم التربية الأسرية والمدرسية لبناء الإنسان الكريم الذي يتحلى بروح الاستخلاف في الإبداع والمبادرة والعمران والإصلاح، وقد أثمر المشروع قيام مدرسة متكاملة تضم أبناء هيئة التدريس

ومن يتوافر لهم مقعد من أبناء الجمهور، وعلى الرغم من أن المشروع كان في خطواته الأولى إلا أن بدايات رؤى مناهجه ونظامه قد أظهرت نجاحاً يشجِّع على استكمال الجهد ليحقق الغاية المرجوة منه بإذن الله.

ومن مهام مركز الأبحاث وعمادته العلمية تنظيم أعمال الاستشارات والأبحاث التي يقوم بها أعضاء هيئة التدريس للشركات والمؤسسات، وبالتعاون معها.

كما تبنت الجامعة برنامجاً لنشر الأعمال العلمية المهمة الصادرة عن أعضاء هيئة التدريس، وقامت بإنشاء عدد من الدوريات العلمية الصادرة عن الجامعة أو المتخصصة الصادرة عن الكليات ومراكز الأبحاث المتخصصة في الجامعة باللغة الإنجليزية، كما أصدرت الجامعة مجلة علمية باللغة العربية تحت اسم "التجديد" ملتزمة أرقى المقاييس العلمية في توخي الموضوعية وحرية التعبير العلمي الذي كان ديدن الجامعة في نشاطاتها العلمية كافة ما دام البحث والتعبير صادرين عن روح علمية وبهدف خدمة الإسلام.

وتكامل مع هذه الجهود العمل العلمي الدائب في كل كلية وقسم علمي في البرامج العلمية بالندوات والمحاضرات والحوارات والمؤتمرات العلمية المحلية والإقليمية والعالمية التي ينَظَّم كل عام عدد منها في مختلف المجالات الإسلامية والإنسانية والفيزيائية من منطلق إسلامية المعرفة في بحث القضايا التي تهم الأمة؛ لتنمية المعرفة على أساس المنظور الإسلامي، وكانت الجامعات ومراكز البحث العلمي في الداخل والخارج والمؤسسات الدولية ومنها المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم والبنك الإسلامي للتنمية – لما لمسته من كفاءة عمل الجامعة وجديتها – تتعاون مع الجامعة، وكان لهذا التعاون آثاره الإيجابية في دعم جهود البحث العلمي وتوسيع آفاقه وخبراته، وتصدر الجامعة سنوياً كتاباً بالأبحاث التي أنجزها أعضاء هيئة التدريس والأبحاث التي هي قيد البحث والإنجاز، فبرهنت برامج الجامعة العلمية على قدرة الجامعة الإسلامية على استيعاب كافة الوجوه الايجابية في المجال العلمي المعاصر وبروح ورؤية وغاية إسلامية حضارية تبعث الأمل في مستقبل حضاري زاهر بإذن الله.

تكامل الأداء العلمي والتربوي:

إذا كان إصلاح برامج التخصصات الدراسية وإصلاح مناهجها يحقق وحدة المعرفة ويزود الطالب بالأسس المعرفية في صياغة محتوى عقله ومنهجه العلمي؛ فإن الروافد الثقافية ومناخ مجال العيش والحركة في رحاب الحرم الجامعي لها أيضاً أهميتها الكبرى في صياغة نفسية الطالب وآفاق تفاعله مع المجتمع.

وأول هذه الأمور التي يجب على البيئة الجامعية توفيرها هو إمداد الطالب بالثقافة العامة الصحيحة، واستكمال الجوانب المهمة اللازمة لتصحيح التشوهات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية، وتأتي هذه المواد والبرامج والخبرات من خلال برامج المتطلبات المختلفة التي تقَدَّم للطالب أو الطالبة، إما عن طريق متطلبات البرامج الأكاديمية على مستوى الجامعة أو عن طريق برامج شؤون الطلاب؛ وذلك لاستكمال وجوه النقص في تكوين الطالب وتنميته روحياً ودينياً وثقافياً وتربوياً، وتزويده بالقدرات الثقافية وبالمهارات الاجتماعية والرياضية، وبالطاقة الوجدانية، نجد أن إنتاجية الطلاب – رغم كثافة البرامج العلمية — تضاعفت، وقدرتهم الاستيعابية تزداد بشكل غير مألوف.

وجاءت برامج متطلبات الجامعة في خطة الجامعة لكي تعنى بالأسس العقدية والأخلاقية والثقافية العامة للطالب؛ بهدف ترقية ثقافته ومعرفته، والإسهام في اعداده للقيام بدوره الاجتماعي والقيادي، إلى جانب دوره المهني؛ ولذلك فإن الجامعة قدمت – إلى جانب مقررات العقيدة والأخلاق والثقافة العامة – مقرراً جامعياً في "الأسرة والأبوة" متضمناً دراسة علمية اجتماعية تربوية إسلامية للشاب والشابة من طلاب الجامعة؛ وذلك لوضع لبنة الأساس في البناء الاجتماعي ألا وهي الأسرة، على أسس إسلامية نفسية واجتماعية سليمة، وتؤهل الوالدين من الشباب لإدراك الغايات والوسائل التربوية، والعمل على إعداد أجيال تتمتع بالقوة الروحية والأخلاقية، وبالقدرة العقلية العلمية والطاقة النفسية الإبداعية، وبحس الكرامة، والثقة بالنفس، مما يوفر لأجيال المستقبل طاقة الشجاعة وروح المبادرة اللازمة لإنسان الاستخلاف والعمران.

وتقدم الجامعة لذات الهدف أيضاً مقرراً جامعياً في "الفكر الإبداعي وحل المشكلات" لنشر الوعي بطبيعة هذا الفكر وأسسه النفسية والتربوية ووسائله العلمية التي تفتقر إليها ثقافة أبناء الأمة؛ يسترشد بها اليافع في تطوير فكره وأدائه وتنشئة أبنائه على الأسس التي تؤهل الأمة وشبابها في سباق العمران وبناء الحضارات.

وهناك أيضاً مقرر جامعي في "قيام الحضارات وانهيارها" يقصَد به أن يكون من متطلبات الجامعة انطلاقاً من أن هذه الأمة هي وريثة عدد من الحضارات الغابرة، وتعيش سباقاً حاداً مع الحضارات الأخرى؛ مما يتطلب تزويد الشباب برؤية كلية علمية حضارية تعين على ترشيد برامج الإصلاح الإسلامي الحضاري المنشود بإذن الله.

لقد أنشأت الجامعة دبلومين عاليين لتأهيل المدرسين في مجال "الأسرة والأبوَّة" وفي مجال "الفكر الإبداعي وحل المشكلات" حتى تتمكن الجامعة من أن تجعل من هذه المقررات الجامعية متطلبات جامعية أساسية. وللأهداف ذاتها أنشئت عمادة لشؤون الطلاب وهي من أهم أقسام إدارة الجامعة وأكبرها؛ والتي أنيطت بها مهمة تفجير طاقة الطلاب، وتنمية روح الإخاء وحسّ الجماعة والانتماء للأمة فيما بينهم، وتوفير مجالات واسعة متكاملة للنشاط والخبرة وبرامج الثقافة والتعليم الحر والمهارات المختلفة، في برامج تنتظم كافة الطلاب وأعضاء هيئة التدريس في أسرة إسلامية كبيرة واحدة تنتمي إلى أكثر من ست وتسعين جنسية من الطلاب، وأكثر من أربعين جنسية من الأساتذة، يحركهم جميعاً حسّ الرسالة، وروح الإخاء، وصدق الانتماء، وسمو الغاية، ووعي التحدي.

إن إدارة الجامعة، وإدارات الخدمات والقبول والتسجيل، وكل أجهزة الإدارة، على المستويات كافة، من أصغر منسوبيها إلى أعلى مستويات مسؤولياتهم، يعدون في سياسة الجامعة الإسلامية جزءاً من الأسرة الجامعية ومن المسؤولية التربوية؛ بل إن دور الإداريين التربوي قد يكون أبعد أثراً لكونهم النموذج الذي يتعامل معه الطالب والطالبة في تصريف شؤون حياته اليومية كل في الجامعة ويلمسه بشكل مباشر، وعلى أساس نوع تعامله معه، ونوعية هذا التعامل، يبني تصوراته وأسلوب تعامله مع الناس والمجتمع فيما بعد، ولذلك فقد حرصت الجامعة -بحسٍّ إسلامي- على أن تحفظ كرامة منسوبيها والاهتمام بحاجاتهم وحاجات من وراءهم؛ بحيث لاتتوانى عن تقديم القروض الميسرة لبناء حياتهم، وتقديم الخدمات الطبية لهم ولأسرهم، وإنشاء محاضن الطفولة لأبنائهم، وإتخاذ ذلك أساساً لتعاملها معهم وأساساً في الوقت نفسه لما تتطلبه منهم من الاهتمام بحسن معاملة الطلاب والطالبات، وحفظ كرامتهم، واحترام إنسانيتهم التي خص الله بها كل فرد من البشر وكرمه بها، والعناية بحاجاتهم، وعدم التواني عن مساعدتهم، وتيسير معاملاتهم، وتوفير كل الخدمات والمشورات الممكنة الميسِّرة لهم بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية واللغوية والدينية؛ مسلماً كان أم غير مسلم.

وبالخبرة والتجربة فإنه بروح المسؤولية، وحسّ التكافل، وروح المصلحة المشتركة المبنية على العدل والإنصاف والمساواة والتقدير والتشجيع والاحترام وتوفير الخبرة والتدريب والتوجيه والنصح؛ فإن الطاقة الإيجابية تنجز الكم الهائل من العمل في يسر وسهولة وبكلفة وجهد أقل بكثير مما تتطلبه الجهود السلبية الضائعة المهدرة في التعويق والصراع الذي يسري في أوصال التنظيمات والمنظمات التي تفتقد الهدف الواضح، وروح الرسالة، ومصلحة الجماعة، وحسّ الانتماء، وصحيح ما أثبتته التجربة من أن الإنجاز والتقدم والنجاح يحتاج إلى جهد كبير، إلا أن التعويق والصراع والتخلف يحتاج في الحقيقة إلى جهد وعناء أكبر، ومن المؤكد كذلك أن الفقر والعوز إنما يكون في الطاقة والروح قبل أن يكون في الموارد.

ثمار واعدة:

إن الروح الإسلامية ورسالتها التي سرت في منهج العمل، وبناء روح الفريق، كانت خلف الإنجازات الهائلة في هذا الصرح العلمي المتميز، وخلال عقد واحد من الزمان، وذلك بسبب ماتميزت به خطة إسلامية المعرفة وتصوراتها من برامج علمية مبدعة، ساندتها بروح إسلامية أنظمة متكاملة فعالة، وتجهيزات ومرافق عالية الكفاءة والأداء، وبأقل التكاليف وأيسرها.

وعليه فإنه لاعجب أن تمكن هذا الصرح المتميز القائم على مشروع إسلامية المعرفة ومنطلقاته الحضارية من أن يقدم للأمة نوعية من (الكوادر) المتميزة في مختلف المجالات، وأن تمثل برامجه الأكاديمية وأنظمته وترتيباته الثقافية والاجتماعية والتربوية، وفي مجال الخبرات والقدرات، وفي مجالات البحث العلمي واهتماماته والقضايا التي تبناها، نقلةً نوعية في الكم والكيف، في مجال التعليم العالي، وتفعيله في خدمة مشروع الأمة الحضاري، وتفجير طاقات الدارسين وتحريك كوامن القدرة والعطاء فيه، وتلبية حاجات الأمة الروحية والفكرية والوظيفية.

لقد برهن طلاب الجامعة وطالباتها من خلال نتاج هذه الفترة القصيرة على أنهم أقدر من أندادهم من خريجي الجامعات العريقة الأخرى، وأن لهم قصب السبق في حلبات التنافس الثقافي والرياضي، ليس على مستوى ماليزيا فحسب؛ بل على مستوى المسابقات المنعقدة في جنوب شرق آسيا، ومسابقات آسيا – أفريقيا؛ بل كانوا يحتلون دائماً مراكز متقدمة على مستوى (استراليشيا)، وعلى مستوى المباريات العالمية الثقافية، ففي مباريات المسابقات العالمية للمناظرات تمكن فريق الجامعة (2000م) – ولأول مرة في تاريخ هذه المباريات العالمية لفريق من بلد غير

ناطقٍ بالإنجليزية – من أن يحقق مركزاً ضمن المراكز العشرة الأوائل، حيث كان فريق الجامعة الإسلامية العالمية هو الفريق صاحب المركز العالمي السابع بين المئات من فِرَق الجامعات الكبرى الناطقة باللغة الإنجليزية في العالم.

بل إن فريق فتيان وفتيات الجامعة الإسلامية العالمية في رياضة التكواندو هم أبطال ماليزيا في هذا الميدان، وهم الذين انتزعوا – حين توافر لهم لأول مرة (1998م) ملعب كرةٍ متكامل في حرم الجامعة الجديد – بطولة الجامعات الماليزية في كرة القدم من يد الفريق المتربع على عرش البطولة لأعوام ثلاثة متتالية دون أن يتمكن فريق أي جامعة من الجامعات الماليزية من تسجيل إصابة واحدة في مرمى فريق الجامعة الإسلامية العالمية.

إن ماكانت تتابعه إدارة الجامعة وجمعية خريجيها من أنباء وإنجازات خريجي هذه الجامعة اليافعة ومايحتلونه كشباب من المراكز القيادية المتقدمة في بلادهم لدليل مادي ملموس على سلامة منطلق إسلامية المعرفة في تفعيل التعليم العالي في خدمة الأمة ومشروعها الحضاري، وفي قدرة منطلقاته علىتحريك مكامن الطاقة الحضارية في كيان الأمة بأقل الجهد وأدنى التكاليف؛ ليتحول الكم إلى الكيف، والقليل إلى الكثير، والرخيص إلى الغالي الثمين، على ما هو معهود في حياة الأمم الحية الواعية ومنظوماتها الفعالة التي تفجر ثقافتها ومناهجها التربوية مكامن الطاقة والبذل في أبنائها، مما يجعلها تجربة رائدة جديرة بالتدبر والتمعن والإفادة من الدروس المستفادة منها في تطوير التعليم الجامعي في العالم الإسلامي وتفعيله لمصلحة الأمة ومشروعها الحضاري.

الموارد والتمويل:

إن جدية العمل، وجدية المشروع ماعبر عنه من أهداف وغايات، وما حققه من إصلاحات منهجية، وما أخذ به من سياسات علمية وتعليمية؛ مكَّنها من أن تلمس ضمائر العاملين، وتحيي في نفوس كثير منهم الأمل، فقد رأوا فيه تلك الآمال مجسدة، ووجدوها في براعم إنتاجه العلمي والإنساني صوراً إسلامية حية فاعلة؛ فتحركت فيهم دوافع البذل والعطاء المادي والمعنوي.

لذلك توافد على الجامعة رجالات الأمة على كافة مستوياتها من الأهالي، ومن العاملين، ومن الرسميين، يتعرفون على قسماتها، ويتلمسون خطاها، ويجودون عليها بالنصح والتشجيع والبذل والعطاء.

وعلى الرغم من أن الحكومة الماليزية كانت تحمل أعباء تمويل برنامج الجامعة، وتمويل مؤسساتها ومبانيها، إلا أن العديد من المؤسسات والمنظمات الدولية الإسلامية – وفي مقدمتها البنك الإسلامي للتنمية – مدَّت إليها يد العون في تمويل مبانيها، وتمويل صندوق المنح الدراسية، وتمويل المؤتمرات العلمية الدولية بشكل غير مسبوق، ولم تتخلف المؤسسات الخيرية، ورجال الأعمال وأصحاب الفضل والخير، عن دعم الجامعة، ودعم صندوق تمويل المنح الدراسية ليحمل الألوف من الطلاب المتميزين من أكثر من (ست وتسعين) جنسية يمثلون كل أطياف لون أبناء الأمة وثقافات شعوبها ومستقبل وحدتها.

ولم يقتصر البذل والعطاء على الجانب المادي؛ بل وفر هذا التفاعل مع رسالة الجامعة الموارد البشرية المتميزة التي ضحت بالانضمام إلى هيئة التدريس فيها والإسهام فيها لتقدم للدارسين في الجامعة ما لهم من علم وقدرة دعماً لبرامجها العلمية والتعليمية والتربوية؛ وقد مثل ذلك تضحيات كبيرة من قِبَلِ كثير من هؤلاء الأفراد، ومن قِبَلِ المؤسسات العلمية، ومن الجامعات التي ضحت ببعض كوادرها المتميزة لمساعدة برامج الجامعة الوليدة والإسهام في تدريسها وأبحاثها العلمية.

إن ماحظيت به الجامعة من الدعم والموارد البشرية والمادية من دولة المقر، ومن الشعب الماليزي، ومن مؤسساته، ومن مؤسسات الأمة العلمية ورجالاتها داخل ماليزيا وخارجها، إنما كان تعبيراً عما لامس نفوسهم وضمائرهم، وحرَّك مكامن الطاقة والبذل فيهم، وأسهم في تفعيل كل هذه الطاقات الخيِّرة في خدمة الأمة، وتفعيل مؤسسة التعليم في صورة الجامعة الإسلامية العالمية ومشروعها الواعد في إسلامية المعرفة وإصلاح الفكر والثقافة والتربية الإسلامية.

إنه لايجب أن تمضي هذه التجربة ودروسها في تحريك مكامن الطاقة والبذل في الأمة، وفي قدرتها على تفعيل مؤسسة التعليم والتربية أساساً لانطلاق طاقات مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري؛ هدراً دون أن نعيها، ونفيد منها، ونطورها، ونستفيد منها في تجارب تفعيل مؤسسات التعليم العالي في خدمة مستقبل الأمة ومشروعها الحضاري الواعد بإذن الله. إنّ الأمل أن تمول الأيسيسكو أبحاثاً علمية لدراسة التجربة ودراسة الحرم الجامعي وما يمثلانه من نموذج إسلامي إبداعي يوضع في خدمة جامعات التعليم العالي في البلاد الإسلامية.

المستقبل:

ممّا سبق يتضح أن الوعي بأبعاد مشروع إسلامية المعرفة ودوره في إصلاح مؤسسة التعليم العالي ليؤدي دوره في إصلاح الحياة الفكرية والتربوية للأمة؛ بحيث ترقى نوعية التعليم والبحث العلمي ونوعية (الكوادر) القيادية والمهنية على الأسس التي تحرك طاقات الأمة، وتحرك وجدان أبنائها، وتنطلق بهم من منطلقاتها، وتصلح ما أصابه التشوه والعطب في جسم ثقافتها وعقول أبنائها وبناء نفوسهم.

ودون وعي القائمين على مؤسسات التعليم العالي وإدارته بهذه الأبعاد الفكرية والتربوية، والإيمان بها في إصلاح التعليم العالي؛ فلن يمكن تفعيل هذا التعليم في تحريك كوامن طاقة الأمة، وتجديد المعرفة فيها، وتفعيل نظم التعليم في خدمة الأمة وترقية نوعية (الكوادر) المعرفية فيها مهما قدموا من وسائل وآليات، وستبقى مؤسسة التعليم العالي لأجيال وعقود قادمة مديدة مريضة على ماهي عليه اليوم في عديد من الجوانب – وكما كانت لأجيال وعقود كثيرة مضت – مؤسسة بالمقياس الحضاري العالمي عاجزة تخرج (كوادر) وظيفية خابية الفكر، ملوثة الثقافة، مشوهة المناهج، محدودة الطموح، لاتسعى إلاّ إلى توفير لقمة العيش بدافع غريزي من حب البقاء مهما تكدست حولها الوسائل والآليات المستوردة، ومهما أضفنا إلى هذه الآليات من مستحدث الآلات، فلا نستطيع أن نتوقع شيئاً أفضل مما رأينا من قبل، فالأصل أن يقاس مستقبل الحال على العلم بما مضى.

إن الأمل الذي تهدف إليه مدرسة إسلامية المعرفة هو أن تؤدي جهودها في توعية الصفوة من المثقفين والمفكرين والتربويين و(الكوادر) التي تتميز بإسلامية فكرها ومنظورها حتى تتحمل مسؤولياتها في الإصلاح الفكري والمنهجي عامة، وفي التعليم العالي خاصة لأنه المجال الذي يعد الصفوة و(الكوادر) الأكاديمية والعلمية والعملية للأمة، وأن تقوم هذه الصفوة بأداء الجهود الفكرية اللازمة لتنقية الثقافة الإسلامية التي تقَدَّم للأمة من كل ألوان الخرافة والشعوذة والخزعبلات، وما يتعارض والعقلية العلمية التي تقوم على طلب الأسباب والسنن الإلهية شرطاً لازماً غير كاف للنجاح، وأن تستند هذه الصفوة في كليات الأمور إلى الإيمان مقروناً بالتوكل (أعقلها وتوكل)، وأن تعمل على ترسيخ كل مايدعم الرؤية الإسلامية الكلية والروح الاستخلافية الأخلاقية والعقلية العمرانية الحضارية ويقويها، وأن تقدم الأدبيات العلمية الإسلامية لإصلاح مناهج التربية، وإعداد الآباء وتأهيلهم تربوياً لتنشئة جيل الاستخلاف المبرأ من خلقِ الرقيق، والمتسمِ بالطهارة والتزكية وروح المبادرة والإبداع؛ لأن الآباء هم العنصر الوحيد الذي يمكنه – بما له

من تأثير ونفوذ على عقل الناشئة ووجدانه وضميره – أن يبدأ بتحريك عجلة التغيير؛ مما يجعلهم في الحقيقة مفتاح الإصلاح والتغيير اعتماداً على مالديهم من دافع فطري في حرصهم على مصلحة أبنائهم، واستعدادهم للتضحية بالغالي والرخيص من أجل تحقيق مايتوخى الآباء فيه مصلحة أبنائهم وفق القناعات التي يقدمها المفكرون والمربون إليهم.

إننا لو قارنا ماتقدمه الأمم المتقدمة ومفكروها ومربوها من دراسات علمية تربوية لتوعية الآباء والمعلمين وقيادات المجتمع؛ بما يقدمه مفكرو العالم الإسلامي ومربوه من دراسات علمية إسلامية للآباء والمعلمين المسلمين، لأدركنا أحد أهم الأسرار في فهم تخلف الأمة الذي اتسم مشروع إصلاحها الحضاري بالغيبة، حين غيب في هذا المشروع الطفل المسلم وفقدت أدبيات تربيته وتنميته، يضاف إلى ذلك إهمال تأهيل كوادر الأمة الفكرية والمهنية بالقليل المتوافر في مجال الثقافة الإسلامية والتربية الإسلامية بسبب إنصراف مؤسسة التعليم العالي عن الاهتمام بالجانب الوجداني والثقافي الإسلامي وعجزها عن أن تقوم بمهمتها في تفعيل العلم والمعرفة وتأهيل (كوادرها) القيادية والمهنية لخدمة حاجات الأمة وإصلاح ما أصاب فكرها وثقافتها ومناهج تربيتها من تشوهات تحول دون فاعلية العقل المسلم وتحريك كوامن طاقته الحضارية.

إن تكديس (الكوادر) العلمية والتقنية ليست في حدِّ ذاته هدفاً؛ ولكن الغاية منه إعداد هذه الكوادر لخدمة الأمة والاستجابة لحاجاتها وحاجات مشروعها الإصلاحي الحضاري، ومن ذلك امتلاك ناصية القدرة العلمية والتقنية بروح الاتقان والعطاء والتي إذا تحلت هذه (الكوادر) بجدية الغاية وبحس المسؤولية الذي يؤدي إلى قدرة الأداء، وإن المجال التربوي، وتنقية الثقافة، وثقافة الآباء التربوية، هي في مقدمة متطلبات الإصلاح الحضاري الإسلامي الذي سعت جهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلى تحقيقه وإقامة نموذج وتجربة تجسد هذه المنطلقات والمفاهيم، وتثبت قدرها بقدر ما توفره إمكانات التجربة على تفجير طاقات شباب الأمة، وتحريك كوامن القدرة وتميز الأداء في نفوسهم، وذلك بوساطة مشروع تفعيل التعليم العالي في خدمة الأمة في الجامعة الإسلامية بماليزيا التي نرجو لها في ظل الظروف التي تمر بها منطقة جنوب شرق آسيا السلامة ودوام الاستمرار والثبات في إنجاز مهمتها وأداء رسالتها؛ حتى تستمر مثالاً يحتذى في مجال تفعيل التعليم العالي في خدمة الأمة، وإصلاح منطلقاته حتى يمكنه الإسهام في تحريك

كوامن الطاقة الكامنة في كيان الأمة وقياداتها وكوادرها العلمية والمهنية، خدمة للحضارة الانسانية وترشيدا لمسارها بإذن الله.